التنوع الحيوي

نظرات في كتاب الله وسنة رسوله

أ.د| كمال حسين شلتوت(*)

الملخص

تتناول هذه المقالة قضية التنوع الحيوي وأهميه الحفاظ على الكائنات الحية وذلك من منظور إيماني يشتمل استعراض بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي لها علاقة بهذا الموضوع. فعلى سبيل المثال لا الحصر أشارت الآية السابعة والعشرون من سورة فاطر إلى تنوع النباتات وعلاقته بالمناخ ممثلاً بأهم عناصره في الصحاري وهو الماء وكذلك بالتربة ممثلة بتباين تضاريسها ومحتواها من العناصر الذي تعود إليه اختلاف ألوان الجبال. وقد أشارت الآية الثامنة والعشرون من سورة فاطر إلى بقية عناصر التنوع الحيوي المتمثل في تنوع الحيوانات، ليس هذه فقط وإنما التنوع داخل النوع الواحد كما يتضح من الإشارة إلى تنوع البشر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾.

ومن استعراض الآيتين السابقتين يتبين أنهما تشيران إلى المكونات الأساسية للنظام البيئي (المكونات الحية وغير الحية) ومدى الترابط بينها، بل اعتبار الإنسان أحد عناصر هذا النظام، وهي المفاهيم التي لم تكن معروفة علمياً إلا في العصر الحديث.

وتتحدث بعض الآيات القرآنية عن كنه التفاعل بين الماء والأرض والذي يؤدي إلى إحيائها وخروج النباتات منها؛ حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى في الآية الخامسة من

(*) أستاذ بكلية العلوم ـ جامعة طنطا ـ مصر.

سورة الحج: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

ويقول في الآية التاسعة والثلاثين من سورة فصلت ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكما يتضح من هذه الآيات أن اختلاط الماء بالأرض يؤدي إلى حدوث ثلاثة تفاعلات هي: اهتزاز الأرض (التربة)، وزيادة سمكها، ثم حدوث عملية الإنبات وهو ما يحدث بالفعل ودلت عليه المعارف العلمية المعاصرة.

ومن الآيات المعجزة في هذا الصدد أيضاً الآية الثامنة والثلاثون من سورة الأنعام التي توضح أن كل الكائنات الحية تنتظم في جماعات (Populations) مثلها في ذلك مثل الإنسان: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ....﴾.

وكما هو معلوم لنا أن هذه المثلية تقتضي التشابه في كثير من الصفات، التي لم يكن معروف لنا قبل النهضة العلمية الحديثة أن مخلوقات أخرى غير الإنسان تتصف بها، ومن هذه الصفات التكاثر الجنسي بين أزواج الكائنات الحية المعلومة لنا وغير المعلومة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾الآية ٣٦ من سورة يس.

والحس في النباتات ولغة التخاطب عند الحيوانات: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾الآية ١٨ من سورة النمل.

ومن الجدير بالذكر أن المشبه لا يقتضي أن يكون كالمشبه به في جميع الوجوه، بل في وجه معين يقتضيه المقام. ورغم التقدم العلمي المبهر في تصنيف وتسمية وتوصيف الكائنات الحية فإن المعلوم منها في الوقت الحالي (حوالي مليون وأربعمائة ألف نوع) يقل

كثيراً عن غير المعلوم (أكثر من خمسة ملايين نوع) وهو ما يعتبر أحد صور الإعجاز العلمي للقرآن الكريم كما يتضح ذلك جلياً من الآية السادسة والثلاثين من سورة يس.

وفي مجال الحفاظ على التنوع الحيوي من الاندثار (Wildlife conservation) أشارت بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إلى تحريم قطع النباتات وصيد الحيوانات في بعض الأزمنة وبعض الأماكن: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾الآيتان ٩٥،٩٦ من سورة المائدة.

وتحريم قطع الأشجار: "من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار" رواه (أبو داود والبيهقي).

ومنع الصيد لغير المنفعة: "من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول يارب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة" (انظر الترغيب والترهيب للمنذري)

ومنع استئصال الأنواع حتى وإن كان ينظر إليها على أنها من مسببات النجاسة: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

مقدمة:

إن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى خاتم الأنبياء والرسل، محمد صلى الله عليه وسلم، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف باللغة نفسها التي نزل بها محفوظاً بحفظ الله كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾الآية ٩ من سورة الحجر.

هذا في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة إما للضياع التام أو لقدر هائل من التحريف والتبديل والتغيير أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية البشرية.

ومجرد حفظ القرآن بهذه الدقة البالغة على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً دون أن يضاف إليه حرف أو يحذف منه حرف هو في ذاته معجزة، فلا تعرف البشرية كتاباً بقى بين أيدي الناس لهذا المدى الطويل دون أن يتعرض لشيء من التبديل والتغيير والتحريف.

ومن المعلوم أن القرآن معجز في كل أمر من أموره فما من زاوية من الزوايا ينظر فيها أي إنسان محايد إلى هذا الكتاب العظيم إلا يرى أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ولابد أن يكون من صياغة الخالق سبحانه وتعالى فهو يحوي من جوانب الإعجاز ما تعجز عنه أية نظم فكرية كانت. ونحن نعرف أن كل نبي وكل رسول أوتي من المعجزات ما يشهد له بالنبوة أو الرسالة، وأن كل نبي أوتي من هذه الأسباب ما نبغ فيه أهل عصره. فموسى عليه السلام بعث في عصر كان السحر قد بلغ فيه شأواً عظيماً فأعطاه الله من العلم ما أبطل به سحر السحرة، وعيسى عليه السلام بعث في زمن كان الطب قد بلغ فيه شأواً عظيماً فأعطاه الله تعالى من العلم ما استطاع به أن يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بعث في

زمن كان العرب قد تميزوا فيه بقدر عظيم من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان لم يمروا به في تاريخهم من قبل؛ فجاء القرآن يتحداهم أن يأتوا بقرآن مثله أو بعشر سورة من مثله أو حتى بسورة من مثله، وما زال هذا التحدي قائماً دون أن يقر عاقل أن أحداً قد كتب سورة من مثله. وقد كانت هناك محاولة يائسة من جانب أعداء الله على شبكة المعلومات الدولية (Internet) تحت عنوان Soura like it (سورة من مثله) ووضعوا عشر سورة مفتريات، وكما يقول الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار: إن الذي ينظر في هذه السور المفتريات بشيء من الإمعان والدقة يرى سفاهة هذه المحاولة فهي عبارة عن سجع مريض ليس له محتوى ولا يدعو إلى شيء من الفضائل أو مكارم الأخلاق، ولكنه سبٌ في الإسلام والمسلمين، وقد رد الدكتور النجار على هذه المحاولة بمقال مكون من ثمانية وثلاثين صفحة وضع على الشبكة (Internet) باللغة العربية والإنجليزية حتى سحبوا هذا الهراء بعد أن فشلوا فشلاً ذريعاً.

وقد أدى نزول القرآن بلغة العرب متحدياً إياهم أن يأتوا بسورة من مثله إلى الاعتقاد بأن إعجاز القرآن في نظمه، هذا البيان العجيب الذي نزل ليس شعراً ولا نثراً ولكنه صياغة عربية لم يعرفها العرب، ولاشك أن القرآن معجز في نظمه، ولكن القرآن له رسالة ولا بد أن يكون محتوى الرسالة أكثر إعجازاً من النظم (فالرسول صلى الله عليه وسلم يصف سورة الرحمن بأنها عروس القرآن بما تحتويه من نظم جميل في ختام آياتها).

ومن المعلوم أن رسالة القرآن الكريم بركائزها الأربع الرئيسية: العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات معجزة في كل قضية من هذه القضايا. كما يحتوى القرآن الكريم بالإضافة إلى رسالته الأساسية قدراً كبيراً من سير الأمم السابقة يروي ذكرها بدقة بالغة أمة بعد أمة ورسالة بعد رسالة دون خطأ واحد. وعلى سبيل المثال صَوَّرَ قمر صناعي مزود بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة حتى خمسة عشر متراً أثناء مروره على

صحراء الربع الخالي بالمملكة العربية السعودية مجرى نهرين إحداهما يجري باتجاه غربيشرقي والثاني يجري باتجاه شماليجنوبي، وظهر أن النهرين يصبان في بحيرة قطرها أربعون كم، وأن بين مصبيّ النهرين يوجد عمران ضخم لم تعرف له البشرية مثيلاً، وبعد دراسة هذه المعلومات من قبل علماء الأرض والتاريخ والآثار والدين أجمعوا على أن هذه أرض إرم التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾الآيتان ٧، ٨ من سورة الفجر.

ومن العجيب أنهم ذكروا أن سبب اندثار هذه الحضارة هو عاصفة رملية غير عادية طمرت كل معالم هذه الحضارة وقد ذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾الآية ٧ من سورة الحاقة، مثل هذه القضايا تُعالَج تحت مُسَمَّى الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم.

كما يحتوي القرآن الكريم خطاباً للنفس البشرية، هذا الخطاب يهز النفس البشرية هزاً عميقاً ويشخص خفاياها وأمراضها بل يعالجها، ويُعالج هذا الموضوع تحت مسمى الإعجاز النفسي في القرآن الكريم. فما من قضية ينظر إليها عاقل من خلال كتاب الله إلا ويترسخ في ذهنه أنه كلام الله الذي أبدع هذا الكون. ومن هذه الآيات المعجزة إشارة القرآن الكريم إلى الكون ومكوناته، فالقرآن يحوي أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن مكونات هذا الكون بدقة بالغة، وهذه الموضوعات تعالج تحت مسمى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. فكثير من العلماء المعاصرين يقولون إن الإشارات القرآنية للكون وظواهره ومكوناته تبلغ من الدقة والشمول والإعجاز ما لم يبلغه العلم الحديث وهو اليوم في قممه. وكما نعلم أن العلوم التجريبية لها طبيعة تراكمية بمعنى أنه كلما زادت الملاحظات كلما حسنت الاستنتاجات، وكلما زادت التجارب والقراءات كلما توصل الإنسان إلى فهم أحسن لسنن الله الحاكمة لهذا الكون. وقد حاول العلماء منذ الصدر الأول للإسلام أن

يدرسوا هذه القضية وكان الإجماع على أن الآيات التي تتناولها آيات معجزة وإن لم يستطيعوا فهمها بالكامل، ولذا فإننا في عصرنا الحالي نفهم من آيات القرآن ما لم يستطع السابقون فهمه، فالآية القرآنية تأتي بألفاظ محدودة يفهم منها أهل كل عصر أموراً معينة وتظل هذه المعاني تتسع باتساع دائرة المعارف الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد وهذا من أبلغ جوانب الإعجاز في كتاب الله.

ولابد من التفريق بين قضيتين هامتين في هذا الصدد وهما الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم. فالإعجاز يعني التحدي وعدم قدرة الآخرين على الإتيان به ولذا فلا يجوز أن نوظف في هذا الموضوع إلا الأمور القطعية. أما التفسير العلمي فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، يجوز لنا أن نوظف فيها الحقيقة والفرض والنظرية حتى نحسن فهم دلالة الآية القرآنية.

فالآيات القرآنية ذات العلاقة بالقضايا العلمية يجب الخوض فيها بدقة شديدة كل إنسان في حقل تخصصه، فلا يجوز لأحد أن يتكلم في قضايا الإعجاز العلمي كلها من علم الخلق إلى علم الأجنة، فالمطلوب هو التخصص حتى نستطيع توظيف أحدث المعارف المتاحة، ونبين للناس أن هذا القرآن الكريم الذي نزل على الرسول الكريم منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة سنة يحوي من حقائق هذه الكون ما لم يدركه الإنسان إلا منذ سنوات قليلة.

الحفاظ على التنوع الحيوي: قضية قديمة وعرض جديد:

يقول الله سبحانه وتعالى في الآية ٤٠ من سورة هود: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

ويقول تعالى في الآية ٢٧ من سورة المؤمنون: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

ويقول المفسرون (مختصر تفسير ابن كثير، وفي ظلال القرآن) في تفسير معنى ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾أنها تعني ذكراً وأنثى من كل صنف من النباتات والحيوانات والثمار وغير ذلك. ويعتقد علماء البيئة المعاصرون أن هذه الآيات تفيد المحافظة على الأنواع من الاندثار، ولذا فإنهم يسمون الحفاظ على التنوع الحيوي باسم مبدأ نوح.